مرحبًا بك في بلدتنا

محمد كمال ترك

ما زال الوقت مبكرا على بزوغ الفجر.. الثانية بعد منتصف الليل..
حر قاتل.. أعلم جيدا تلك الليالي الحارة..
للصيف دوما نصيب الأسد من الليالي والأيام.. فلا يكون للشتاء حظ سوى شهرين أو أقل من العام..
اشتقت كثيرا لليالي الشتاء.. حين تقل حركة الكائنات والناس.. فنادرا ما تسمع أحمق يجوب البلدة بموسيقى صاخبة كما هو الحال الآن في ليالي الصيف الحارة الفاترة!!
هذه البلدة لا تعرف الهدوء ليلا ولا نهارا.. فبالطبع النهار صاخب بالمركبات والآلات.. وليلا أيضا تعبر قوافل النقل الثقيل للبضائع وعادة ما تقف تلك القوافل على الطريق لتجد ما ينتظرها من مؤن ومعدات وصخب!
الناس هنا لا يعرفون سوى شيئين: المال، والمصلحة الخاصة!
عادت تلك الذكريات تراودني.. حين اندلعت أحداث الثورة بالبلاد.. كانت بلدتنا بعيدة كل البعد عن تلك الأحداث.. بل والأدهى أن ظلت ثورة الحاكم ترحب بالزائرين.. وصور مرشحي مجلس الشعب وبجانبهم صور الحاكم كما هي.. وكأننا في عالم آخر!!
ظلت سلطة الشرطة وسطوتها كما هي.. اللهم إلا تغيير الشعار.. الشرطة في

obeikan.com

خدمة الشعب.. دوما ما أتساءل عن تلك الخدمة ولا أجد إجابة! ولا أذكر أني رأيت الجيش في البلدة سوى مرة أو مرتين.. حين حدث شغب من بعض السارقين أو غيرهم ممن لهم صلة بالعالم الخارجي.. فأرادوا أن يحدثوا ثورة.. أو قل أي حدث يعلنون به أن هذه البلدة جزء من البلاد الأم!!

ظلت قوات الجيش يومين أو أكثر، والتقط المارة كالعادة صورا مع أفراد الجيش وعرباته.. لم تكن سوى عربة واحدة لنقل الجنود.. ومعها عدد لا يتجاوز أصابع اليدين من أفراد الجيش.. الأمر هنا لا يستدعي وجود أي قوات!

ومن العجيب أنه في خضم كل تلك الأحداث وانعدام الأمن كما كان يقال.. انقسم الناس فريقين..

الأول أقام أفراحا بالميادين العامة.. أفراحا على الطراز الشعبي.. وما أدراك ما هذا الطراز! خمور وراقصات وما لذ وطاب من مغيبات العقل والممنوعات!

أما الفئة الأخرى فكانت من ذوي النفوذ والمال.. فاتجه هؤلاء إلى الأراضي الزراعية واحتلوها وبدأوا بعملية بناء للأبراج والمباني الضخمة.. ولم يتوقف العمل بالبلدة لحظة واحدة.. فجني المال والمصلحة الخاصة يعلوان كل المصالح.. ولا شيء يسمى «وطنية».. إلا في الأغاني ومباريات كرة القدم؛ حيث قرر أهل البلدة فيما بينهم، باتفاق غير معلن، أن يقتصروا مشاعر الوطنية على تلك المباريات!

ولم يحدث ما يعكر الصفو إلا أن أحد كبار السارقين ممن أصبحوا رجال أعمال أمام المجتمع قرر أن يعود لمزاولة نشاطاته القديمة.. إلا أنه بذلك تعارض مع المصالح الشخصية لكل الأفراد.. ولولا ذلك ما اتفقوا جميعا وسلّموه لقوات الجيش!!

كانت تلك المرة الثانية والأخيرة لنزول قوات الجيش البلدة!

ولمّا انقضى الأمر وتخلى الحاكم عن كرسيه.. ظلت صورته أياما ترحب

بالزائرين كالعادة.. فلم يكن يعني الناس وجوده هو شخصيا من عدمه.. فلم يسبق له ولا لأحد من رجاله أن زار أو حتى فكر بزيارة لتلك البلدة النائية!!

قرر بعض الشباب أن يحدثوا تغييرا.. أخذهم حماس الشباب مضافا إليه حماس الثورة.. وما يلهب الصدور والمشاعر من وسائل الإعلام.. فاتجهوا للقمامة!!

نعم القمامة!!

حيث تعد القمامة أحد، بل أهم، معالم البلاد.. دوما ما ترحب بك القمامة في كل مكان أمكن لك أن تزوره.. سواء من الشوارع أو الميادين أو حتى الطرق العامة.. أصبحت شيئا مألوفا بين الناس!

فقد اعتادوا أن يعيشوا بينها.. واقتصر مفهوم النظافة لديهم أن يخرجوا القمامة خارج منازلهم ويضعوها أمامها.. لتتجمع القمامة أمام المنازل في الحي.. وتعرض عرضا جماعيا على قارعة الطريق.. وكأنك في معرض عام للقمامة في حي!!

وأصبح منظر السيدة التي تخرج يوميا لتلقي بقمامتها من النافذة أو الشرفة لتسقط في المعرض العام للقمامة بالحي شيئا مألوفا.. بل إن لم يحدث أصبح نذير شؤم لأهل الحي.. فكيف لم يكتمل معرضهم العام للقمامة اليوم؟

ولك أن تعرف تفاصيل أهل كل حي بمجرد أن تلقي نظرة سريعة على معرضهم العام للقمامة.. والأمر بسيط لن يكلفك لا وقتا ولا جهدا ولا حتى أموالا كتلك التي يدفعها الناس لدخول المعارض الفنية بالغرب.. وليس الغرب فحسب، بل في عواصم بلادنا الأم.. أم بلدتنا، فلها معارضها الخاصة من القمامة!!

فبمجرد أن تخرج من منزلك سترحب بك قمامة الحي الذي تسكن فيه! وستخبرك بخبايا جيرانك أجمعين.. فهذا كان لديه مائدة ضخمة احتفالا

بمولده الجديد.. أما هذا فتشاجر مع زوجته وألقى بأثاث المنزل خارجا!!
وهكذا وأنت بطريقك إلى عملك أو أيًّا كان طريقك.. سيتحتم عليك أن تزور الكثير من المعارض العامة للقمامة.. وتنعش أنفك بالروائح الذكية المنبعثة منها! وبزيارتك الصباحية ستعرف كل ما جرى في البلدة من أحداث بارزة.. شيء رائع، أليس كذلك؟!
وحين ينتهي طريقك وتنتهي زيارتك.. عليك أن تشكرهم على حسن الضيافة.. ولكن كيف؟ دعني أخبرك.. الأمر بسيط.. فالمشاركة في تلك المعارض هي أحسن وسيلة للشكر.. ولكن ستأخذك الحيرة في أي تلك المعرض ستشارك؟
يمكنك أن تفعل كما يفعل أذكياء البلدة؛ حيث يلقي أهل هذا الحي بقمامتهم في الحي المجاور.. على أن يلقى أهل الحي المجاور بقمامتهم في الحي الأول.. وبهذا يكون الإبداع والعرض المشترك للمعارض!
وأيضا يمكنك أن تشارك أهل الحي الذي تسكنه معرضهم العام.. فالأقربون أولى بالمعروف! لكن لن يتسنى لك شكر باقي المعارض القمامية العامة التي رحبت بك في أثناء جولتك الصباحية!!
إذًا فإليك الحل.. عليك أن تحتفظ بقمامتك في يدك طوال الطريق.. حتى تمر على جميع معارض القمامة العامة.. ثم تقارن سريعا بين تلك المعارض.. ولتكن المقارنة على النحو التالي:
أولا: المنظر العام من حيث التناسق والتوزيع العادل؛ حيث يأخذ الذباب مواضع متساوية مع باقي الحشرات.. وتنتشر الأمراض بالتساوي على جميع المارة!
ثانيا: الرائحة المنعشة للأنف.. أي الروائح أنعشتك وأيقظتك لتمارس يومك الحافل بكل نشاط؟!
وأخيرا: أكثر تلك المعارض وفرة.. والتي من خلالها أدركت أخبارا وخبايا أكثر لأهل هذا الحي.. أو أذكياء الحي المجاور!

وحين تنتهي من مقارنتك.. ولا تنسَ أن تكون عادلا باختيارك.. الآن حانت اللحظة الحاسمة التي ستشعر فيها بلذة المشاركة والشكر والعرفان.. وأيضا الانتقام!

حانت لحظة عرض أعمالك القمامية الخاصة.. ولترِهم شيئا من إبداعاتك!

ولا تنسَ أن هناك جولة أخرى مسائية بعد عودتك سالما من عملك.. فعليك أن تجلب شيئا من القمامة.. أو احتفظ بها كلها.. وبعودتك سترى الكثير من المعارض الأخرى يمكنك بكل بساطة أن تشارك فيها بالضبط كما فعلت صباحا..

وشكرا لكم على حسن الضيافة.

حقا، شعب غاية في الكرم وحسن الضيافة.. أراهن بكل المعارض القمامية التي عرفتها طوال عمري في تلك البلدة.. أن ترى هذا الإبداع في مكان آخر زرته أو ستزوره!

هل يسمح لك أحد بالمشاركة في أي معرض تزوره؟! هل هناك هذا الكم الحافل من المعارض المتعددة؟!

والأهم من ذلك هل هناك إيثار وذكاء مشاعر؛ حيث يتبادل الناس معارضهم يوميا دون انقطاع كما يفعل أذكياء البلدة يوميا من تبادل للقمامة ترحيبا بالزائرين؟!

وأما عن حماس الشباب والثورة الذي حاول القضاء على تلك المعالم والأعمال الإبداعية من المعارض القمامية اليومية.. والمعاني الإنسانية الجميلة من إيثار وتبادل معارض وحس فني مرهف تربى عليه الناس طوال ثلاثين عاما من الزمان أو يزيد!

لم يجد ذلك الحماس إلا أن ينطفئ سريعا كما اشتعل سريعا.. وذهبت أحداث الثورة أيضا سريعا كما مرت من البداية على أهل البلدة مرور الكرام.. إلا أنها جعلتهم يشعرون بما يميزهم عن العالم الخارجي.. من معارض عامة للقمامة وما فيها من إبداع مشترك ومتبادل!!

وذهبت رياح الثورة كأي رياح أحداث عبرت من ذي قبل ورحب بها العوام باللامبالاة المعتادة!

ومات حماسها حتى قبل أن يولد!!

اللهم إلا قطرات لا تطفئ ظمأ العصفور..

obeikan.com